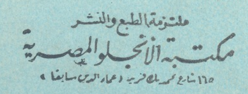
تناول جديد للمراهقة

دكتور صلاح مخيمر

أستاذ علم النفس
بكلية المعلمين — جامعة عين شمس

١٩٦٩



إهـــــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

تناول جديد للمراهقة

تأليف

دكتور صلاح مخيمر

أستاذ علم النفس
بكلية المعلمين ـ جامعة عين شمس

١٩٦٩

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة


مكتبة
ا.د
قدري حفني

تناول جديد للمراهقة

بقلم الدكتور صلاح مخيمر

ليس من شك فى أن ظاهرة المراهقة قد اجتذبت إليها وماتزال تجتذب كثرة من دراسات الدارسين وأبحاث القائمين على البحث العلمى فى مجال الظواهر النفسية . وعلى الرغم من فيض الوقائع التى تمخضت عنها مثل هذه الدراسات ومثل هذه الأبحاث، وعلى الرغم مما نعثر به هنا وهناك من لمحات تفسيرية خاطفة ذكية، إلا أننا لانجد فى هذا كله مانستريح إليه ونقنع به . فالوقائع تتتابع فى أوصاف صادقة دقيقة بل وخلابة أحيانا، بل وكثيرا ماتتتابع فى شمول شامل يأتى على كل مظاهر التغيرات البدنية قبل أن ينتقل إلى العقلية والوجدانية لينتهى عند الاجتماعية . وقد لايقف الأمر عند هذه الاستاتية الوصفية فيتخطاها إلى الدينامية والصراعات، فإذا الدراسات والأبحاث تعرض عليك أهم الصراعات التى يعيشها الكائن مراهقة فى طريقه إلى الرشد . وتختلف الصراعات فى نوعيتها وتتباين فى شمولها بتباين الدراسات والباحثين ولكنها تلتقى كلها عند أمر واحد ينزع عنها

جميعا خاصية العلم بمعنى الكلمة ، ويبعد بها جميعا عن الدراسة العلمية الجادة تحتل مكانها بين حشد الوقائع الوصفية التى تقيم حقل ماقبل العلم .

وليس معنى هذا أننا ننزع عنها كل قيمة علمية ، فهى ولاشك مدخل ضرورى إلى العلم وتمهيد لابد منه فى الطريق إليه . ولايختلف الأمر فى حالة الأوصاف الرقمية عنه فى حالة الأوصاف اللفظية ، وإن بدا الأمر لبعض السذج على خلاف ذلك . صحيح أن الأوصاف اللفظية تبدو لنا وكأنها جانب من الأدب بينما تتراءى الأوصاف الرقمية فى لباسها العددى علمية السمات رياضية الإحكام والصرامة والدقة . ولكن هذا كله لايعدو أن يكون انعكاسا تخلف عن المسيرة التاريخية للعلم حيث كانت أبهر الإنجازات فى ميدان الرياضة . إن أرقام القياس بمتوسطاته وإحصائياته وكل ماشئت من أدوات الصنعة العلمية لاتقيم العلم إلا بقدر مايجعل المعطف المعملى الأبيض من صاحبه باحثا بمعنى الكلمة . فهى ليست غير أوصاف بالأرقام لاتكاد تزيد فى قيمتها العلمية عن الأوصاف اللفظية هذه التى لايحول طابعها الأدبى بينها وبين الالتزام بالدقة والموضوعية .

إن العلم كما نعرف ذلك اليوم هو أولا وقبل كل شيء بناء جديد للوقائع، بناء للوقائع وصفية كانت أم رقمية ، بناء عقلى يعتمل ويتم فى ذهن الباحث ومن ثم فهو بناء جديد يتم عبر النسبية . وهذا البناء الجديد للوقائع يقيمها

جميعا فى صرح النظرية الواحدة التى تتيح لنا ليس فحسب أن نفهم جميع الوقائع منتظمة فى بناء واحد بل وأن نفهم جميع الظواهر المماثلة . بذلك يكون هذا البناء الجديد للوقائع قد أتاح رد الكثرة الكثيرة من الوقائع إلى وحدة واحدة هى وحدة النظرية أو وحدة القانون ، أو ثبت من المبادىء والتصورات الأساسية التفسيرية . وهذا البناء الجديد هو بناء كيفى ، بناء مثالى ، يقدم لنا عن الظاهرة نمطا للعلاقة المثالية بين جوانبها الرئيسية المختلفة بحيث تكون سائر الحالات العيانية الأخرى على كثرتها وتنوعها مجرد تباينات وتشكيلة انتشارات فردية ، أو قل تجسيدات متفردة لنفس العلاقة الكيفية المثالية التى هى لب العلم والتى يعد كل ماعداها تمهيدا لها سابقا عليها لا يدخل فى صميمها .

كل ذلك يصدق أيضا على مانلتقى به فى دراسات الدارسين وأبحاث القائمين على البحث فى مجال المراهقة ، حين يعددون الظواهر الانفعالية المختلفة التى تقيم مايسمونه أزمة المراهقة دون أن تنطوى هذه المظاهر العديدة على وحدة تفسيرية واحدة تتيح لنا معقولية اجتماعها وتواكبها . إن نظرية علمية فى المراهقة ينبغى أن تتيح لنا فهم جميع الوقائع المتصلة بهذه الظاهرة بحيث تجد كل واقعة معقوليتها ضمن الكل التفسيرى الواحد . ذلك هو ماتنطوى عليه محاولتنا هذه التى نتقدم بها اليوم ، والتى تتطلب منا قبل كل شىء أن نصحح المفهوم الشائع للمراهقة .

المراهقة هي الميلاد الحقيق ، هي الميلاد الوجودي للعالم الجنسي

ليست المراهقة فى رأينا مجرد مرحلة من مراحل النمو ، لا ولا هي ذروة المراحل التى يتقمم عندها النمو فينطلق فى الطريق إلى الرشد . كذلك ليست المراهقة هي ميلاد جديد كما قالت بذلك بعض الاستبصارات التى هي ذكية وإن بقيت محدودة وجزئية . ذلك أن المراهقة تنطوى فعلا على كل مظاهر الميلاد ولكنها لا تكون بذلك ميلادا جديدا . إنها فى واقع الأمر ميلاد الكائن البشرى ، ميلاده النفسى ، ميلاده الحق كذات فريدة تعى لأول مرة وجودها الملىء فى عالم اكتملت له أبعاده .

ولعل تقدم الدراسات النفسية فى غالبية مجالات البحث يكاد ينحصر فى تخطى الثنائية التقليدية بين بدن ونفس ، وما تنطوى عليه من أولوية ضمنية لما هو بدنى بالقياس إلى ما هو نفسى . ان التحليل النفسى قد أنجز الكثير حين استطاع فرويد أن يتخطى المفهوم البدنى التشريحى للجنس . ولقد استطاع فرويد أن يحقق هذه الوثبة من خلال تصوره العبقرى عن الجنسية الثنائية حين أقامها إطارا عاما ونمطا من العلاقة الكيفية المثالية تتباين تجسيداتها أنوثة أو ذكورة تبعا لما تكون عليه الانتشارات الفردية لمختلف العوامل فى حالة حالة من الحالات .

إن الكائن البشرى يوجد فى البدنى ويوجد فى النفسى فى الوقت نفسه، فهو بدنى نفسى معا ، هو سيكوسوماتى كما يسميه البعض . ومن خلال السيكوسوماتية هذه يعيش نفسه ويعيش الحياة حين يبدأ فى اكتمال وعيه بوجوده . ومن هنا فميلاد الكائن البشرى لايتحدد بالرجوع إلى الزاوية البدنية فقط، فنعتبر لحظة خروجه من رحم الأم هى لحظة ميلاده الحقيق، أو لحظة تكوينه الفيزيائى الأول عندما تم تلقيح البويضة بالحيوان المنوى. فمثل هذه النظرية تعد امتداداً للثنائية التقليدية فى مناصرة للبدنية على حساب النفسية . إن الميلاد الفيزيائى للطفل لايعدو أن يكون مرحلة تمهيدية من المراحل التى تقطعها الحياة فى مسيرتها منذ أن التقت البويضة بالحيوان المنوى . وصحيح أن خروج الطفل من رحم الأم إلى العالم الخارجى ينقله إلى بيئة أكثر تعقيدا ولكن هذا الانتقال على أهميته لايغير من الأمر شيئا، فهى مرحلة تمهيدية إلى بداية الوعى المكتمل بالوجود .

وكذلك الحال بالنسبة إلى أية مرحلة من مراحل النمو ،فهى لاتعدو أن تكون علامة من علامات الطريق التى تمهد للميلاد الوجودى للكائن البشرى،إذ تتيح له ـ إن جاز القول ـ جملة الشروط الطوبوغرافية التى منها سينسلخ وعيه بكيانه الملىء . كلها ليست غير تغيرات كمية تصاعد فى طريقها إلى التغير الكيفى الحق ، إلى المراهقة . وسيان كانت هذه المراحل ساذجة فى تصورها تتحدث عن طفولة باكرة ووسطى ومتأخرة ، تسبقها بمرحلة

للمهد وتتبعها بمرحلة عن مشارف البلوغ، أو سيان كانت عميقة تستند إلى المنطقة الشبقية المترعمة وما يترتب على ذلك من نوعية المشاعر التى يعيشها الكائن ،ونوعية علاقاته مع ذاته ومع الموضوعات الخارجية ، فإن الأمر فى الحالين لايعدو أن يكون محاولة لتبين المحطات الرئيسية ذات المعالم المتفردة ضمن الطريق الواحدة التى تسلكها حياة الكائن البشرى تمهيداً للحظة الميلاد الحقيقى والوعى المكتمل بالوجود . أين إذن يكون الميلاد الحق للكائن البشرى ؟

إن جدلية الحياة هى القانون الرئيسى لكل حياة . وبحسب هذه الجدلية تمضى الحياة فى تطورها من الشىء إلى نقيض الشىء . فالشىء يخلق نقيضه وينشب الصراع بين هذين النقيضين ويحتدم ، قبل أن يتمخض صراع النقيضين عن ائتلاف جديد لن يلبث حتى يتمخض عن نقيضه وحتى ينشب بينهما الصراع وهكذا .

من ذلك نرى أن الموجود إنما يبدأ وجوده الحقيقى كنقيض لهذا الذى ولده . فصميم وجوده هو أن يتناقض مع هذا الذى ولده وأن يدخل معه فى صراع ، وفى هذا مايحدد اللحظة الحقيقية للميلاد الوجودى . ان الكائن البشرى يولد فى هذه اللحظة التى يعى فيها وجوده بشكل مكتمل ، البدنى والنفسى جميعا ، فى عالم اكتملت

بالدلالة الجنسية أبعاده ، يعى وجوده هذا متناقضا وفى صراع مع الوجود الذى ولده . ومن هنا فإن المراهقة هى الميلاد الحقيق للكائن البشرى . وكل مايسبقها يعد بالحرى وبمعنى ما امتـــدادا لوجود آخر هو وجود الأبوين ، وجود الجيل السابق . فوجود الأبوين يواصل الحياة فى هذا الكائن الجديد الذى لم يصبح كياناً بعد ، والذى لن يبلغ إلى ذلك إلا فى اللحظة التى يعيش فيها وجوده فى صورته المكتملة المليئة ، يعيش فيها وحدته الكلية بكل مظاهرها متناقضة مع وجود الأبوين وفى صراع معه .

ومن هنا فإن انتفاضة البزوغ للكيان الجديد تكون فى نفس الوقت انتفاضة فى وجه جيل الآباء بقدر ماهى انتفاضة فى وجه ماضيه السابق على المراهقة ؛ إذ ليس هذا الماضى غير امتداد الجيل الماضى وتواصله الذى منه وضده ينبثق كيانه الفريد . وفى هذا مايفسر لنا كثرة من مظاهر الثورة والتمرد والتحدى التى تبدو مزدوجة تتجه إلى عالم الكبار بقدر ماتتجه ضد طفولة المراهق وماضيه . هى انتفاضة واحدة وثورة واحدة ينتزع بها وجوده « ميلاداً » من الوجود السابق عليه المناقض له . هى حركة واحدة ننظر إليها من خارج فتبدو لنا صراعا مع عالم الكبار ، وننظر إليها من داخل الكيان

الواحد فتراها انتزاعا للكيان الجديد من بين براثن الكيان النقيض ، من براثن الجيل السابق ، من رحم الوجود الأبوى .

و « هذا الانتزاع للكيان ضد » هو صميم الميلاد بمعنى الكلمة، وهو المعنى الحقيقى لبداية أى وجود . ان الكائن ، إذ يخلع ماضيه، إذ يخلع أبويه ، يبدأ أول لحظة فى وجوده الحقيقى . إن وجوده هو هذا « الانخلاع من » ، هو هذا الانسلاخ عن ، تماما كما تبدأ الصيغة المرئية وجودها فى نفس اللحظة التى تنسلخ فيها عن الأرضية . إنها عملية واحدة تبدو من وجه تناحيا وانسلاخا ، وتبدو من وجهها الآخر بداية وجود ، بداية وحدة ، تبدو ميلادا حقيقيا . فهذا الانسلاخ عن الطفولة ومحاولة خلعها ليس غير نقطة البداية فى المراهقة التى تبدأ محاولات تتخذ أردية جديدة تكون بالضرورة فضفاضة فى بطولتها الرجلية أو خلاعتها الأنثوية . وهذا هو مايمكن أن نعبر عنه من الزاوية الجدلية بأن المراهقة من حيث هى وجود حقيقى ، هى مزاج من شىء ونقيضه ، مزاج من شىء فى سبيله إلى الخلع والفناء هو الطفولة ، ونقيض فى سبيله إلى الارتداء والنماء هو الرشد .

ولكن هذه النظرة من حيث أنها لاتقتصر على الفيزيائى ولاتقف عند البدنى تنطوى على نتيجة أخرى . إن وجود الآباء لم نعد نفهمه من الزاوية الفيزيائية ، بحيث يقتصر على كياناتهم البدنية ويتحدد

وفقا لها ويقف عند حدودها ، بل هو كما رأينا يفيض فيمتد فى هذا الذى سيصبح وجود الأبناء ، ويمضى فى امتداده إلى هذه اللحظة التى يبزغ فيها كيان الأبناء انتفاضة فى وجه كيانهم ، وكيانا يناقض كياناتهم ويصطرع معها . كذلك كان وجود الأجداد بالنسبة للآباء ، وآباء الأجداد بالنسبة للأجداد . وهكذا تتواصل الكيانات البشرية بتداخل بعضها فى بعض وامتداد بعضها عبر الفيزيائى فى بعض .

وإذا كان كل تواصل عضوى هو بالضرورة تواصل متفمصل تفصله إن شئت أوقل تصله إن شئت مفاصل طبيعية ،فإن هذه الفواصل المواصل على صعيد السلالة البشرية هىالمراهقة . فالمراهقة هى هذا التمايز والتفاضل فى التواصل البشرى لكيانات بشرية بازغة تنسلخ عن كيانات سابقة مستعارة هى كيانات الآباء . فإذا نظرنا إلى الأجيال فى تعاقبها لرأيناها تتواصل يقطعها بين الجيل والجيل مفصل المراهقة ، وهو مفصل كما قلنا واصل فاصل معا ، فالنقيضان ينتميان بالضرورة إلى عالم مقال واحد ، وإن كان الواحد منهما يناقض الآخر وفى صراع معه .

وفى هذا يكون تواصل البشرية وتخطيها لنفسها . ومعنى هذا أن الإنسانية تتخطى نفسها فى المراهقة ومن خلالها . إن الإنسانية تثور على نفسها وتتمرد على نفسها كيما تبلغ إلى أن تتخطى نفسها

وتتجاوز ما كانته فى تجدد متصل، وبذلك يتواصل مضيها فى طريق الصيرورة. إن الإنسانية تقف فى وجه نفسها حين يقف جيل الأبناء فى وجه جيل الآباء. وهذا الصراع هو هو بعينه الميلاد الحق للأبناء. وهو هو الوسيلة التى تتأدى منها الإنسانية إلى أن تتخطى نفسها فى ميلاد جديد، فتواصل تقدمها على طريق الحضارة. فجيل الأبناء يعى وجوده نقيضا لوجود الآباء، ويقوم الصراع بين الجيلين ويتمخض عن ائتلاف جديد هو ائتلاف من الشىء ونقيضه يحمل الإنسانية خطوة إلى أمام بالنسبة إلى ما كانت عليه مع جيل الآباء. ويكبر الأبناء ويأتى دورهم كآباء يتواصل وجودهم فى طفولة أبنائهم، ثم يبدأ أبناؤهم الوجود بتمرد المراهقة وثورتها، وينشب الصراع من جديد، ويتمخض عن ائتلاف جديد يتقدم بالإنسانية خطوة جديدة، وهكذا دون توقف. فالمراهقون يقفون من جيل الآباء موقف القوى المضادة، ويعتنقون نقيض فلسفاتهم وفكرياتهم، وينتهى صراع المتناقضات الى ائتلاف جديد تجدد به الإنسانية نفسها، إذ تنتقل فى نهاية الصراع مما كانته مع الآباء إلى ما تكونه مع الأبناء خطوة جديدة على طريق التقدم.

وجهان للمراهقة، مستويان، وأسلوبان للسيطرة، وصراعان أساسيان

(أ) من زاوية الصدمة : المستوى السلالى للتكيف . الأساليب السالبة الضدية للسيطرة على الصدمة ، والتكيف الكاريكاتيرى .

(ب) من زاوية محاولات استعادة الاتزان : المستوى الفردى للتكيف ، وتجريب أساليب موجبة لاستعادة الاتزان بين القوى الغريزية والدفاعية المصطرعة .

انتهينا إلى أن المراهقة هى الميلاد الوجودى للكائن البشرى من حيث أنه يعى نفسه لأول مرة ذاتاً تريد أن تتحدد فى مواجهة الذوات الأخرى ، ووجوداً يتلمس ماهيته الخاصة ويتأهب للسيرة الأولى فى رحلة تحديد المصير التى تمتد امتداد الحياة.

إن الكائن يعى وجوده لأول مرة كياناً ينبغى أن يتحدد فى مواجهة الآخرين ، فى مواجهة الآخرين كباراً من حوله ، وفى

مواجهة الكبار امتداداً قد احتل ماضيه . إن هذا الماضى لا ينتسب إليه : إنه ليس هو ؛ إنه لم يكن غير مشيئة الكبار وجيل الكبار وإرادة الكبار تعمل على أرضية من وجوده الفيزيائى الفج ، وضمن إطار إرهاصات إمكانياته الجنينية التى لم تكتمل . إنه الآن يعى وجوده من حيث هو كيان ينبغى أن يوضع فى مواجهة الآخرين ، وينبغى أن يقوم ويتحدد فى مواجهة الآخرين . وهذا الوعى المكتمل يختلف تمام الاختلاف عن التباشير السابقة عليه فى سنوات الطفولة والصبا . ذلك أن الوعى يولد هنا فى عالم جديد قد اكتملت جوانبه، وعثر من خلال البلوغ على أبعاده الحقيقية . ذلك هو التغير الكيفى الذى ينبثق طفرة على أرضية من التغيرات الكمية السابقة . كان ولابد للبلوغ من أن يتحقق حتى يجد الكائن نفسه فى عالم الحقيقة والواقع بكل ما ينطوى عليه من دلالات مليئة . فالبلوغ يضع الكائن فى العالم الجنسى ، ومن هنا يكون وعيه قد استكمل كل عناصره كيما يكون وعياً مكتملا ، ومن ثم ملتزماً .

إن الكائن الآن يعى ماضيه كشىء غريب عليه لا ينتمى إليه، ويتحتم عليه أن يخلعه وأن يتخطاه . إنه يعى مسئوليته والتزامه بإنجاز هذا التحطى للماضى الغريب إلى حاضر يكون حقاً هو وجوده

الحقيقى. ولكنه لايتبين بعد ما يمكن أن تكون عليه معالم وجوده. كل مايعيه فى ثقة هو أن هذا الوجود الذى هو وجوده، والذى لم يتحدد بعد، والذى يسعى إلى تحديده، لابد وأن يكون مختلفاً تمام الاختلاف، متناقضاً كل التناقض مع هذا الماضى الغريب الذى لابد وأن يخلعه ويتخطاه.

بذلك ترتسم الملامح الأولى من محاولته لتحديد ماهيته، ضدية فى طابعها، متناقضة فى شكلها ومضمونها مع كل ما يسم ذلك الماضى الذى تسلل إليه الكبار فى غيبة من وعيه بحقيقة وجوده.

لقد كان حتى اللحظة مجرد موجود فى ذاته أقرب ما يكون إلى أشياء الطبيعة التى تقوم الإرادات الخارجية على تحديدها وتشكيلها. أما الآن فهو يعى نفسه وجوداً حقيقياً وموجودا من أجل ذاته. ليس لإرادة أخرى غير إرادته أن تضطلع عنه بتحديد ماهيته أو رسم مصيره. ولكن الخطوات الأولى فى طريقه هذا يغلب عليها طابع الضدية أو قل تحكمها جدلية الحياة. فليس لديه من الوعى بالحياة من حوله ما يكفى لأكثر من الوقوف فى الجانب الآخر، وفى الطرف النقيض، فذلك هو الأسلوب السالب فى توكيد الذات ومساندة الوجود فى مواجهة الآخرين. تلك هى المرحلة الأولى من الميلاد

الوجودى التى لن تلبث حتى تنفتح لسلسلة من المحاولات تختبر فيها مختلف الإمكانيات وتجرب فيها الحلول المنوعة قبل أن يصل الكائن إلى أسلوبه النهائى الموجب فى توكيد كيانه . وهذه هى المرحلة الثانية من الميلاد الوجودى تنتقل بالكائن البشرى من الوضع الذى كان قد اتخذه فى الطرف النقيض إلى وضع آخر جديد يصدر فيه عن نفسه ، ويتحدد فيه بالرجوع إلى نفسه، بأكثر مما يفعل ذلك — كما كان — معارضة للآخرين وتناقضاً معهم . بذلك يكتمل ميلاده الوجودى كذات فريدة .

بذلك يكون قد انتقل من الوجود ، مجرد الوجود « كنقيض »، إلى الوجود من حيث هو كيان فريد . بذلك يكون قد خلص من صراعه مع جيل الآباء إلى تسوية ومصالحة وائتلاف . بذلك يكون قد انتقل من موجود فى ذاته إلى موجود حقيقى من أجل ذاته . وهو بذلك لا يكون كما كان فى طفولته نسخة مستعارة الهوية ، ولا يكون كما كان عند بزوغ المراهقة هوية مناقضة ، بل يصبح هوية فريدة تماثل مع غيرها من الهويات وإن تفردت عن سائر الهويات الأخرى .

فالمراهقة من حيث هى الميلاد الوجودى للكائن ليست عملية تتم فى لحظة ، أو تستغرق وقتاً بعينه ، بل هى عملية مفتوحة ينتقل فيها

الكائن من الأسلوب السالب فى توكيد الكيان عن طريق التناقض إلى الأسلوب الموجب الذى يصدر عن الإمكانيات الحقيقية الداخلية للوجود الفردى الفريد . ومن هنا فقد تكتمل هذه العملية عند البعض بينما تظل مبتورة عند البعض الآخر ، وقد لا تكون أصلا عند بعض ثالث فيظلون طيلة حياتهم موجودات فى ذاتها وماهيات سابقة على وجوداتها ، وهويات مستعارة ، وكيانات فارغة جوفاء لا تزيد عن أن تكون مجرد أقدام تضطرب بالحركة تحت بردعة الثقافة بتصوراتها النمطية وكليشيهاتها اليابسة .

فعلى المستوى السلالى تتتابع الأجيال ؛ ومن وجهة نظر جدلية تتبدى المراهقة دائماً أبدا ميلادا فى عالم جديد هو العالم الجنسى ، حيث تصطبغ الكائنات والأشياء والطبيعة بدلالة جنسية مفعمة . هذا العالم الجديد ، عالم الميلاد الوجودى يحكمه اتجاهان أساسيان :

أولهما : هو الاستقلالية المسرفة ، إن لم تكن محاولة وضع الكبار فى موقف التبعية .

وثانيهما : هو الثقة المطلقة بالذات ، إن لم تكن محاولة تجريد

الراشدين وآرائهم من كل ثقة . هذان الاتجاهان الرئيسيان يلبسان فى عالم الجنسية الوليد صورة البطولية الرجلية والخلاعة الأنثوية من حيث هما تكيف سطحى كاريكاتيرى وإرهاصة بالأساليب الموجبة فى تحقيق السيطرة .

وعلى المستوى الفردى وشتى المحاولات الفردية التى تبذل إقامة من جديد للاتزان الذى انحطم ، ينبغى للفهم أن يميز هنا بين الصدمة من حيث هى ضياع للاتزان الذى كان قائما وبين المحاولات الإيجابية لإقامته من جديد . فالبلوغ تدفق لمدد هائل من الطـــاقة الجنسية ، ومن ثم فهو صدمة تذهب بالاتزان الذى كان متحققا . هذه الطاقة الغامرة هى صدمة ، هى عصاب صدمى بكل معانى الكلمة. ومن هنا تتم تعبئة الغالبية العظمى من الطاقة لمواجهة هذا الخطر الماثل . ويتبقى قدر قليل من الطاقة تحت تصرف الشخص فلا يقتدر على مواجهة مواقف الحياة ؛ ومن ثم تبرز زملة الأعراض الانفعالية الخاصة بالعصاب الصدمى من سرعة القابلية للتهيج وما يلحق بها من نوبات غضب وبكاء ، وسرعة القابلية للتعب دون جهد يذكر ، وعدم القدرة على تركيز الانتباه والجهد ، هذا إلى نوبات القلق ومختلف الأساليب التكرارية الإفراغية فى الأحلام الليلية أو النهارية . كل ذلك عام يصدق على جميع الحالات وينتمى بالحرى إلى المستوى

السلالى ، شأنه شأن الأساليب السالبة فى السيطرة والصور الكاريكاتيرية للتكيف .

أما عن المحاولات التى يبذلها الفرد ليقيم من جديد الاتزان الذي انحطم بين المكبوتات وقوى الدفاع ، فإن الذى يعنينا هنا بصفة أساسية هو ما توحى به من انطباع التناقض فى الغالبية العظمى من الحالات . ذلك أن الفرد المراهق يجرب كثرة من الإمكانيات والحلول ينتقل من الواحد إلى الآخر ويناوب الدفاع والإشباع ، وقد يواكب بينهما ليعود من جديد إلى الدفاع فالإشباع . كل ذلك فى طريقة إلى إعادة الاتزان ، إلى أن يعثر بحله الفردى الفريد الذى يخصص شخصيته ويرسى الخطوط العريضة الأولى فى تحـــديده لماهيته

ويمكن أيضاً بصورة عامة أن ننظر إلى المراهقة من زاوية جديدة للرؤية هى الصراع الذى يعيشه الكائن البشرى فى المراهقة ، فنلح فى حالة على الوجه الخارجى ، وفى الحالة الأخرى على وجهه الداخلى . فإذا كان البلوغ يضع الكائن فى عالم جنسى جديد عليـــه فإنه أنما بذلك يضعه فى مواجهة الآخرين وفي مواجهة نفسه . إنه يواجه

الآخرين مجتمعاً من الكبار يشكل الحقل الخارجي لحياته ، ويواجههم من ناحية أخرى فى صورة طفولته التى ينتفض فى وجهها يحاول أن يتخطاها إلى تحديد ماهيته . ولكن الكائن البشرى يعيش الصراع الداخلى فى صورته الأساسية مواجهة بين حفزاته الجنسية الجديدة التى تتطلب الإشباع من ناحية وبين مجتمع الكبار بإجباطاته ، وماضيه بآلياته ، وحاضرة فى قصور إمكانياته من ناحية أخرى . وهكذا نجدنا من جديد أمام اللوحة نفسها : حفزات غريزية ومحاولات مختلفة من الحلول الدفاعية .

خلاصة القول أن المراهقة هى الميلاد الحق للكيان البشرى على المستوى الفردى ، وهى ميلاده الجديد على المستوى السلالى . فما عساها أن تكون هذه النظرية الواحدة التى يمكن أن تتيح لمختلف الوقائع والظواهر والمظاهر معقولية ودلالة ضمن الوحدة التفسيرية العامة للنظرية .

هيكل النظرية

مثل هذه النظرية فى رأينا تستند بالضرورة إلى جدلية الحياة ولكنها تفهم هذه الجدلية ضمن إطار من الصراع الصدى ومحاولات

الكائن التى يبذلها سالبة ثم موجبة تخطياً للصدمة التى يعيشها . فالمراهقة من حيث هى ميلاد وجودى تضع الكائن فى موقف الصدمة أو قل فى صدمة الميلاد . فالمراهقة هى هذه الصدمة التى يولد من خلالها الكيان . هى بلغة الفلسفة الجدلية هذه القمة الكيفية التى تبلغها سائر التغيرات الكمية السابقة عليها فى المراحل المختلفة والتى تعتبر تمهيداً لها وشروطاً تهىء انبثاقها . فصميم الميلاد صدمة قوامها انحطام الاتزان الذى كان قائماً ، قوامها حالة كيفية جديدة تنبثق بداية ميلاد وجودى تتتابع لحظاته فى الطريق إلى تحدد الماهية .

وتقضى جدلية الحياة على هذا التطور أن يمضى من الشىء إلى نقيضه ، وأن يكون هذا النقيض نقيضاً فى شكله وفى مضمونه . ومن ثم فإن المراهقة فى وقفتها ضد مجتمع الكبار ترفع الاستقلالية فى وجه الاستقلالية التى كانت حكراً على الكبار ، وترفع الثقة المطلقة بالذات فى وجه الثقة المطلقة التى كانت حكراً على الكبار ، وتتناقض فى مضمونها الفكرى وفى اتجاهاتها التصورية مع الحياة الفكرية التصورية لمجتمع الكبار .

والمراهقة من حيث هى صدمة فى صميمها يتطلب فهمها الرجوع إلى الاقتصاديات النفسية وتعبئة الغالبية العظمى من الطاقة لمواجهة

الدفقة الجنسية التى جاء بها البلوغ أو جاءت به . فنى الضعف النسبى للطاقة المتبقية ما يفسر جملة من المظاهر الانفعالية العديدة التى تخصص المراهقة بقدر ما تخصص العصاب الصدمى . ولكن هذه الطاقة الجنسية الغامرة تصبغ العالم بالجنسية فيغدو عالم جنس . ويترتب على تشبيق الألوان والأشكال والصيغ والمدركات أن يكون ميلاد الكائن فى عالم جنسى بمعنى الكلمة . هذه الدفعة الجنسية الغامرة ، التى تستنفد معظم طاقته النفسية وتضعه فى عالم جنسى جديد عليه ، تمثل خطراً حقيقياً بالنسبة إليه .

ومن هنا تبرز المحاولات الدفاعية فى صورها الإعلائية أو الإفراغية ، أو فى صورها المرضية العديدة ، أو فى حلولها البديلة ، أو فى محاولات من هذا كله تتلمس الطريق بين دفاعات تجربها وإفراغات تحاولها ، أو بين هذه وتلك تناوبها أو تحاول أن تواكبها إلى غير ذلك . ومن هنا تعتمد نظريتنا فى المراهقة على نقطتين :

١ — جدلية الحياة وتشمل .

(ا) صراع الاستقلالية فى وجه التبعية قبل الوصول إلى تبعية متبادلة .

(ب) صراع الثقة المطلقة فى وجه الجهل المطلق قبل الوصول إلى النسبية .

(ح) تكيف كاريكاتيرى من السطحية والضحالة والضدية يقف عند البطولية الرجلية والخلاعة الأنثوية .

٢ — صدمة الميلاد وتشتمل على :

(ا) الدفقة الجنسية تضطلع بتشبيق العالم ؛ ومن ثم فالكائن البشرى إذ يولد فى المراهقة يولد فى عالم جنسى .

(ب) ضآلة الطاقة المتبقية ، ومن ثم مظاهر انفعالية خاصة بالمصاب الصدمى .

(ح) الدفعة الجنسية تطيح بالتوازن الطفلى القديم ، ومن ثم تبرز ضرورة الدفاع بتجريب مختلف الإمكانيات حلا لهذا الصراع . ويبرز بصفة خاصة طابع التخطيط السريع بين مختلف الأمكانيات إقداماً إلى البطولية والأنوثة الخليعة ، أو أنطواء فى أحلام اليقظة والممارسات الاستمنائية ، أو نكوصاً إلى جماعات الجنس الواحد بجنسيتها المثلية وعدائيتها للجنس الآخر ووقفتها الأصلية فى تناقض مع مجتمع الكبار ،

أو حلولا إفراغية فى جماعات النشاط والرياضة واتجاهات السياسة والعقيدة، أو حلولا زاهدة الخ . .

وقفة عند الخصائص البارزة :

(ا) الاستقلالية إن لم تكن محاولة وضع الكبار فى تبعية .

(ب) المطلق لكل ما يتصل بالذات على حساب العالم .

(ح) البطولية الرجلية والخلاعة الأنثوية (تكيف الضحالة والسطح) :

تقضى جدلية الحياة بأن ينتقل الكائن البشرى من التبعية تجاه الكبار إلى استقلالية تجاهد من أجل وضع الكبار فى تبعية، وذلك قبل أن يتمخض النقيضان عن التبعية المتبادلة التى هى خاصية الرشد . يتضح ذلك فى صراع الأجيال فيما تتخذه الكائنات المراهقة من أردية البطولية الرجلية والأنوثة الخليعة قبل أن تتيح التطور لهـــذه الكائنات أن تتخطى السطح ومحاكاة الكاريكاتير إلى الرجولة والأنوثة ، فى دلالتهما الحقة ومعناهما العميق .

وتقضى جدلية الحياة بأن ينتقل الكائن البشرى من الانعدام المطلق للثقة إزاء الكبار إلى إنعدام مطلق فى الثقة بالكبار بالقياس إلى نفسه ، وذلك قبل أن يتمخض النقيضان عن الثقة المتبادلة أو قل النسبية الموضوعية التى هى خاصية الرشد . فالكائن المراهق ينتقل من انعدام الثقة بنفسه إلى الثقة المطلقة بنفسه ، ينتقل مما يعتقده من أنه موصوم بالجهل المطلق من جانب الكبار إلى رمى للكبار بالجهل المطلق ، وذلك قبل أن يصل به التطور وصراع النقيضين إلى منظور من النسبية وتبادل الانفتاح بين الذات والآخر . ويتضح ذلك أيضاً فى صراع الأجيال من الزاوية الفلسفية والأيديولوجية مما يمكن تلخيصه فى مصطلح المراهقة الفكرية بحلولها الجاهزة من تقدمية مسرفة جادة كالشيوعية ، أو مسرفة خليعة كالجيمس دينية والخنفسية ، أو رجعية مسرفة كالإخوانية ، أو التنقل بين ذلك كله كأردية نقيضة لفكريات جيل الآباء وفلسفاتهم .

لكن الاستقلالية من ناحية والمطلق من ناحية أخرى يستندان أيضاً إلى مبدأ آخر عام هو أن الحياة تمضى فى تطورها من اللاتمايز إلى التمايز . فكما أن تكثر أشكال الانحراف يسبق تعايش النقيضين قبل أن يستقر الفرد عند أحدهما صريحاً ، وكما أن الفرد يعيش

الجنسية الثنائية قبل أن يستقر عند الذكورة أو الأنوثة ، ويعيش ثنائية المشاعر وتناقض العاطفة قبل أن يستقر عند الحب أو الكراهية ، ويعيش الأكلال الإجمالية قبل أن يعيش أجزاءها التكوينية متميزة ، فكذلك المراهقة . من هنا يمكن القول بأن الكائن المراهق يعيش المتناقضين على التعاقب ، تتضح ثغره فى إحدهما أو يبلغ منه إلى التشبع فينتقل إلى الآخر ، ويتأرجح بين الطرفين قبل أن يستقر عند واحد منهما أو عند ائتلاف يصالحهما . وذلك كله لا يخرج عن أن يكون تعبيراً وترجمة عن جدلية الحياة التى تقضى على المراهقة بأن تكون هذا الانتقال الزاحف المتصل من شىء يمضى إلى فناء ، إلى نقيض ، يمضى فى طريق النماء . هذا التأرجح يستند إلى جد ما إلى الاقتصاديات النفسية من حيث هي إطاحة بالاتزان القديم يأتى على استقرار الشخصية فتنطلق في تأرجحها بين الأطراف النقيضة ، ثم يضيق هذا التأرجح شيئاً فشيئاً من سعته فيغدو محاولات لإعادة الاتزان بين الحفزات الغريزية والاستثمارات الدفاعية وما يلحق بهذا كله من تجريب مختلف الحلول والفلسفات والاتجاهات والفكريات ، ومن تناوب الإشباع والدفاع ، أو تناوب أشكال الإشباع فى تناوب أو تواكب لأشكال الدفاع مما يتمخض عن كثرة كثيرة من مظاهر التباين والتناقض .

فإذا أردنا أن نقف عند بعض ماسبق بشيء من التفصيل لقلنا أن جدلية الحياة تقضي على الكائن المراهق وهو يخرج من تبعية الطفولة أن يندفع إلى النقيض ، ومن ثم فهو لايصل إلى الرشد ، بل إلى البطولية الرجلية والخلاعة الأنثوية من حيث هما مظاهر سطحية تقف بالتكيف عند الظاهر والبارز ، هو تكيف كاريكاتيرى إن جاز القول يذكرنا بالتفاهم التقليدى الأبدى بين الجندى والبغى . فكما أن الجندى يجسد الرجولة فى سطحيتها وفى عنفوان عنفها بعيدا عن أن يكون الكائن لنفسه مصدر التصرف ومرجع المسئولية ، فكذلك البغى لاتأخذ من الأنوثة غير سطحها الضحل فتقف عند خطوطها الكاريكاتيرية الممسوخة من فرط المبالغة والإسراف . من هنا تكون المسالك العدوانية التى تفهم الرجولة عدوانا وإدمانا فى فى امتهان عنيف للقيم كلها ؛ ومن هنا أيضاً تكون المسالك الخليعة التى تفهم الأنوثه غواية جنسية وسباقا بالمساحيق والملابس الفاضحة إن لم تكن إمعانا فى السلوك المستهتر . والبطولية فى صورتها الاستقلالية تنسحب على فلسفة الحياة وأسلوبها والاتجاهات والجوانب المادية وكذلك السرية فيما يتصل بالصداقات والنزهات ومواعيد الخروج والعودة إلخ .

ولقد رأينا كيف أن المراهق حين يخرج من تبعيته للوالدين

يندفع إلى النقيض فيحاول فى استقلاليته المسرفة أن يضع الوالدين فى تبعية بالنسبة إليه . كانت حريته مصادرة ومن ثم يريد الآن مصادرة حرية الآخرين . كان الكبار يرمونه بالجهل المطلق ومن ثم يريد الآن أن يرميهم بالجهل المطلق . ولكن الكائن المراهق لايستطيع مع ذلك أن يستقر عند هذه اللوحة الضدية البطولية فيتأرجح بينها وبين آليات اتجاهاته الطفلية . فهو إذ يريد ميزات الكبار على نحو ما تبدو له وفى تصوره التجسيمى البطولى يميل فى الوقت نفسه — تعززه فى ذلك عاداته وآلياته — إلى الاحتفاظ بميزات الطفولة . ولابد من فترة من التأرجح بين النقيضين قبل أن يصل إلى الوسط الفاضل من حيث هو تبعية متبادلة وفكرية مفتوحة ، ومن حيث هو رشد يستقر عند الرجولة أو الأنوثة بعيدا عن الطفلية والبطولية جميعاً .

وكذلك الحال من زاوية المطلق ، فهو ليس غير مظهر من مظاهر التكيف الكاريكاتيرى فى سطحيته ومغالاته . فالكائن المراهق فى توكيده البطولى لرشده يعتنق نقيض اللوحة الفكرية للوالدين ويتطابق مع فلسفات وآراء لوجوه أبوية تقف موقف التناقض من فكرية أبوية . بل إنه ليسبغ طابع المطلق إمعانا فى توكيد انتمائه إلى جماعة الفكرة الجديدة أو الفلسفة الجديدة .

ولكنه لايستطيع أن يستقر على ذلك بل لابد وأن يتأرجح ؛ يجذبه عادات الطفولة حينا فينكص إلى اللوحة القديمة للوالدين ، أو تلوح له فكرة جديدة أو فلسفة جديدة أخرى تبدو له أكثر ملاءمة فينتقل اليها بتطابقه . وهو فى هذا كله يصبغ بالمطلق كل مايقف عنده . فالقانون المهيمن هو الكل أو لاشيء . وهكذا يتحرك فى تناقض بين الآراء والفلسفات ، بين التقدمية المسرفة والرجعية المسرفة ، وبين هاتين اللوحتين واللوحة الأصلية للوالدين . وهو فى هـــذا كله لايستطيع أن يستقر بسبب الطاقة المستنفدة فى المشكلة التى طرحها البلوغ ، فيتحرك بحسب السطح والظاهر ، وتبعا لما تتيحه الفلسفات المختلفة من حلول إفراغية أو تسويات مصالحة بين حفزاته الغريزية وطاقاته الدفاعية . من هنا مثلا يكون تأرجح المراهق بين أنانية الأثرة وغيرية الإيثار ، بين فلسفة اللذة وفلسفة الزهد ، بين الجدية والاستهتار ، بين الإقبال المندفع والإعراض الحزين ، بين إصرار العناد والاستسلام السهل ، مما يترجم حينا عن الدفاع وحينا عن الإشباع ، وحينا ثالثا عن أشكال من المصالحة وألوان من التسويات بين حفزاته ودفاعاته .

اللوحة الكلينيكية للمراهقة

انحطام الاتزان وزملة المظاهر الانفعالية الناجمة عن صدمة الإثارة الغامرة

إن الميلاد الوجودى للكائن البشرى هو ميلاد العالم الجديد الملىء المكتمل الدلالة بالنسبة إليه ، هو ميلاد العالم الجنسي حيث الحياة بأحيائها وأشيائها تصطبغ بالدلالة الجنسية . ذلك هو تشبيق العالم المعاش أو قل تجنيسه الذى يبدل بمعنى الكلمة من حواس الكائن وإدراكاته ومشاعره ، حتى أن رفيقة لعبه وصباه بالأمس تغدو محورا تنتظم من حوله كل حياته بل وتغدو قيمة تتضاءل بالقياس إليها كل قيم العالم ، إن لم تستمد منها قيمها ودلالاتها وأوزانها . فالحمرة لم تعد تستمد جمالها من التفاح بل من الشفتين والوجنتين ، والشقرة والزرقة فى جمالهما قد استحالتا خصلات شعرها وأعماق هذا البحر من نظرات عينيها . ثم يأخذ الحاضر كله والمستقبل فى أبعاده المطلقة ، ومن زواياه المهنية والعاطفية والاجتماعية ، ينتظم فى صروح خيالية حول هذا المحور الجديد .

إنه ميلاد عالم جديد محوره الجنس، وأضواءه وظلاله وانعكاساته جنسية فى كل دلالاتها . إنه عالم جديد ولدته جحافل الطاقات الجنسية الغامرة يفرض على الكيان البشرى أن يعيش صدمة الميلاد الوجودى عصابا صدمياً بكل معانى الكلمة . فطاقات الجنسية الغامرة تطيح بالاتزان القديم بين الدفاعات والحفزات وتتعبأ الغالبية العظمى من طاقات الفرد لمواجهة هذا الخطر الداهم من فيض طاقاته الجنسية . ومن هنا لايبقى إلا أقل القليل من الطاقة متاحا تحت تصرف الأنا لتواجه به مواقف الحياة العادية . ويعمل نضوب الطاقة هذا على سرعة القابلية للتعب دون أن يكون هناك جهد حقيقى مبذول . ويعجز الانتباه عن أن يستمر فى التركيز مما يأخذ صورة سرعة الملل . كما تزداد سرعة القابلية للتهيج الانفعالى فتنفجر فى يسر نوبات القلق ونوبات الغضب أو البكاء ؛ هذا إلى المحاولات الإفراغية الأخرى فى الأحلام الليلية أو أحلام اليقظة النهارية ، إلى غير ذلك من مظاهر الزملة الانفعالية للأعصبة الصدمية .

يتميز هذا العالم الجديد إذن بأن الكائن الذى يعيشه قد انحطم أتزانه بسبب الدفقة البيولوجية الطارئة الغامرة . فأغلب الطاقة يواجه هذا الاجتياح الغريزى . والعالم المجهول يزيد من أحاسيس القلق وانعدام الأمن كما تزيد منها أحاسيس العجز الناجمة عن التناقض بين الإمكانيات

القاصرة للكائن المراهق الذى هو طفل الأمس وبين ما يتطلبه الواقع الذى يثيره بدلالاته الجديدة وما يتطلبه من استجابات ينبغى تعلمها عبر المحاولات والأخطاء . كما أن عدم الاستقرار الانفعالى ، وإن رجع إلى كمية الطاقة المعبأة لمواجهة المشكلة التى يطرحها البلوغ ، إلا أنه يستند أيضاً من الناحية الفيزيائية إلى التناقض فى معدلات النمو فى الأجزاء المختلفة من البدن ، مما قد يترتب عليه أن ينضاف الإسراف فى الطعام وفى النوم إلى زملة المظاهر الانفعالية السابقه . ومن هنا يعيش الكائن ميلاده الجديد غرابة شاملة . فكيانه الجديد غريب عليه ، وعالمه الجديد غريب عليه ، وطابع الإحباط يفرض نفسه ، ويجر أحلام اليقظة للتعويض قبل أن تبرز سلسلة من المحاولات بحثا عن الحل ، فيكون التخبط والتأرجح والالتجاء إلى مختلف الحيل الدفاعية .

ومن هنا مثـــلا يكون تأرجح المراهق بين أحاسيس التعب والخمول والاكتئاب وأحاسيس المرح المسرف الذى يبلغ الهوس ، تأرجحه بين اليأس الشاحب والثقة الوردية المطلقة . وكأن البلوغ وقد حطم الاتزان الذى كان قائما حرم الشخصية من استقرارها فانطلقت كبندول ساعة الحائط تتأرجح بين القطبين النقيضين . وكل ذلك يمكن تلخيصه من زاوية العصاب الصدمى بالمحاولات التلقائية

للخروج من الصدمة : فهناك من ناحية محاولات هجوعية لاستجماع الطاقة استعداداً للوثبة ، وهناك من ناحية أخرى المحاولات الإفراغية العنيفة ، مما يعبر عنه شافرز فى لغته الخاصة بالدفاعات الانسحابية والدفاعات العدوانية .

تخبطات المحاولات المختلفة لإقامة اتزان معين بين الحفزات الغريزية والدفاعات

كل ماسبق يمكن فى الواقع تلخيصه وتكثيفه فى أمور ثلاثة أساسية هى : الميلاد الوجودى فى عالم جديد جنسى ، وضياع الاتزان الذى كان قائماً بزملة الأعراض الانفعالية الناجمة عن ذلك ، ومحاولة مختلف الحلول لإقامة الاتزان من جديد بين الحفزات الجنسيه ودفاعات الأنا تكيفاً مع إمكانيات الواقع . ولكن هـــذه الأمور الثلاثة ترتد فى واقع الأمر إلى شىء واحد ليس غير . فالميلاد الوجودى فى عالم جديد جنسى يضع الكائن البشرى بإمكانياته القاصرة ، ليس فحسب فى عالم غريب عليه بل يضعه على الأخص فى مواجهة جحافل متدفقة من الإثارة الجنسية الغامرة التى أتى بها البلوغ . ذلك

هو الجانب السلبي من عالم الجنسية الجديد يعيشه الكائن البشرى اجتياحا يذهب باتزانه السابق وخطراً داهما يتطلب تعبئة الغالبية العظمى من طاقته النفسية على حساب الطاقة المتبقية تحت تصرف الأنا لمواجهة مواقف الحياة . ومن هنا تبرز زملة المظاهر الانفعالية التى نجدها عادة فى كل عصاب صدمى ، وخاصة سرعة القابلية للهياج والتعب فى انعدام للقدرة على التركيز . ولكن الكائن البشرى لا يتوصل فى هذه الجنبات السلبية من عالمه الجنسى الجديد بل تظهر عنده أساليب إيجابية من محاولة السيطرة على الإثارة الجنسية الغامرة ، وتتعاقب عنده محاولات مختلفة لحل الصراعات التى طرحها البلوغ . ذلك أن الكائن البشرى وإن عاش عالمه الجنسى الجديد من وجهه السلبي إثارة صدمية غامرة ، فإنه يعيش أيضاً هذا العالم المكتمل الجديد فى امتلائه من وجهه الإيجابي صراعات تضعه فى مواجهة عالم الكبار بقدر ما تضعه فى مواجهة نفسه . صدام خارجى مع عالم الكبار بنواهيه الثقافية ، وصراع داخلى مع هـــذا العالم الذى ينتصب فى أعماق طفولته ، ينكرها ويسعى إلى تخطيها ، وإن كانت ما زالت تعوزه الوسيلة .

صدام خارجى مع الموضوعات الجنسية وقيمها المانعة ، وصراع

داخلى مع حفزات جنسية تلح بطلب الإشباع ، وقيم تأبى عليهـــا ذلك على أرضية من الإمكانيات القاصرة والخبرة الضحلة .

والاستقلالية ، وطابع المطلق ، والبطولية الرجلية أو الخلاعة الأنثوية ، كلها ليست أكثر من أدوات رئيسية واتجاهات بارزة أساسية يتخذها الكائن البشرى دفاعات وحلا لصراعاته التى يعيشها . ومهما تباينت التفصيلات والجزئيات فإن هذه الخطوط العريضة تظل صادقة فى جميع الحالات .

فأمام الرغبة الجنسية الملحة تنفتح جملة من الإمكانيات والحلول المتباينة من إشباعات مباشرة ، أو إشباعات بديلة ، أو دفاعات انسحابية استمنائية ، أو انسحابية زاهدة ، أو تكوينات ضدية تتشبث بالممارسات الدينية ، أو إعلاءات فى نشاطات رياضية أو فنية أو سياسية أو عقيدية ، أو نكوصاً إلى الجنسية المثلية ، أو هى ائتلافات تصالح بعض هذا إلى بعضه الآخر ، تناوب بينهما أو تراكبهما .

هذه الرغبة الجنسية الملحة تجد فى تحدد إمكانيات الواقع مايعمل على تعقيد الموقف . فالمراهق يتجه إلى المراهقة التى كانت زميلة لعبه

وصباه حتى الأمس ، ولكن المراهقة من جانبها تتجه عنه إلى المتقدمين عليه فى النضج المنتهين أو شبه المنتهين من دراساتهم ؛ هذا إن لم تتجه إلى واحد من الوجوه الأبوية . وصحيح أن المراهق قد يوفق فى محاولته لإقامة علاقة عاطفية مع مراهقة ولكن هذا لا يتم فى الغالب إلا على حساب تفوقه الدراسى مما ينطوى على صراع بين الإشباع العاجل وتأجيل الإشباع ضمانا للأمن مع الإشباع . ولكن الأغلب هو أن يتعرض المراهق للإحباط فينكص إلى « بديلة أم » ملتجئا كما أشرنا إلى أحلام اليقظة والممارسات الاستمنائية ، أو إلى محاولات التصعيد عبر الأنشطة الدراسية العلمية أو أنشطة الفنون الجميلة ، أو إلى إفراغ فائض التوتر فى أنشطة تصعيدية رياضية أو عقائدية ، خاصة حين تنطوى بالنسبة إليه على تحقيق الانتمائية العاطفية لجماعة من جماعات الكبار . وقد يلجأ كما قلنا للدفاع بتكوينات ضدية قوامها الزهد فى الجنس الآخر، أو معادية له فى نكوص للجنسية المثلية ؛ وقد يكون الدفاع بالتشبث العنيف بالقيم الدينية والأخلاقية والاستغراق فى طقوسها فى إطار من الانطوائية أو فى شلل وجماعات دينية .

ويمكن تلخيص الموقف من الزاوية الاجتماعية فى أن المراهق يريد الدخول فى جماعات الكبار ، وتؤدى به خشيته الناجمة عن قصور

خبرته إلى إنسحاب وانطواء أو إلى إقدام متهافت . أنه يريد أن يعاملة الغير معاملة الكبار ، ويخشى من استمرارهم فى عادتهم القديمة تجاهه بقدر ما يخشى استمرار آلياته الطفلية التى تشده إلى الماضى . فهو لا يملك بعد فنيات التعامل مع الكبار ، كاستخدام النكتة أو الإسهام العميق فى المناقشات،دون خبرة ودون معارف كافية. ويؤدى هذا القصور فى الإمكانية إلى محاولة الانسحاب أو تعويضها اندفاعية فى الانتماء للجماعة ليكون أكثر عضوية من الأعضاء وبطولياً فى رجولته . وفى حالة الانسحاب يكون من البديهى أن تبرز أحلام اليقظة لتسد الثغرة بين قصور الإمكانية ومتطلبات الواقع .

ومن الزاوية الاجتماعية على صعيد الصراع بين الأجيال يمكن القول بأن الكائن المراهق يعيش الصراع بين التبعية الواقعية التى تفرض نفسها من خارج ، بقدر ماتمتد إليه من طفولته ، وبين رغبته الضدية فى الاستقلالية ووضع الكبار فى التبعية . وكل ما فى الأمر هنا أنه يتحول من التبعية الموجبة إلى التبعية السالبة فيؤكد بحاجته إلى الثورة عليهم استمرار تبعيته لهم مما يمكن اعتباره نوعا من ميكانيزم الإنكار أو ضربا من ميكانيزمات التكوينات الضدية والمحو . وعلى وجه الجملة يمكن تلخيص الأمر فى صراعات بين إمكانيات قاصرة من حيث الطاقة والقدرة والخبرة ، ومايتطلبه الواقع وصولا للاشباع

أو إعادة للاتزان ، مما يرتد إلى الميلاد الوجودى بالبلوغ . فهذا العالم الجنسى الجديد إذ يضع المراهق فى مواجهة جنسيته ، فى مواجهة نفسه ، يضعه أيضاً فى مواجهة عالم الكبار بل فى مواجهة العالم كله من حوله ، ومن ثم فهى أزمة واحدة وصراع رئيسى واحد يتيح للبشرية أن تتخطى نفسها وأن تتجدد دائما أبدا فى صيرورة متصلة على طريق الحضارة .

* * *

وخلاصة كل ماسبق هو أن المراهقة ميلاد وجودى للكائن البشرى ، وميلاد جديد للإنسانية تتجدد به على طريق التقدم . وهذه الظاهرة على الصعيد الفردى أو السلالى تحكمها جدلية الحياة . ومن ثم فمقدمة المسرح تحتلها فى البداية أساليب ضدية وطرائق سالبة من السيطرة فترتفع راية الاستقلالية ويهيمن المطلق وتتعدد المظاهر التى تقف فى سطحيتها وضحالتها عنـــد مستوى التكيف الكاريكاتيرى . كل ذلك قبل أن ينتزع الكائن المراهق نفسه من زملة الأعراض المرضية التى أطلقتها صدمة هذا الميلاد الوجودى فى إطاحتها بالاتزان القديم بين الحفزات الغريزية والقوى الدفاعية .

ولكنه ما أن يستعيد سيطرته بعض الشيء على الطاقات الجنسية الغامرة حتى يتخطى الأساليب الضدية السالبة فى محاولات أصيلة وطرائق موجبة يجرب فيها مختلف الإمكانيات ، ويتناوب مختلف الحلول ، بلوغا إلى إقامة من جديد للاتزان بين حفزاته الليبيدية واستثاراته الدفاعية .

أبريل سنة ١٩٦٩

دكتور صلاح مخيمر

إقرأ للمؤلف

أبحاث :

- سيكولوجية الموضة ، الأنجلو .
- شائعات معركة يونيو ١٩٦٧ ، الأنجلو .
- نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعي ، الأنجلو .
- نحو نظرية ثورية في التربية ، الأنجلو .
- المجال الفيزيائي والمهني للمكفوفين ، الأنجلو .
- تاريخ تأهيل المكفوفين ، الأنجلو .
- الأنماط الانفعالية للمكفوفين ، الأنجلو .
- في مجال الحياة الوجدانية الاجتماعية للمكفوفين (تحت الطبع) .

مؤلفات (بالاشتراك مع الأستاذ عبده ميخائيل رزق)

- مدخل إلى علم النفس الاجتماعي ، الأنجلو .
- في الاشتراكية العربية ، ماركس يدحض الماركسية ، الدار القومية .
- دراسات في القومية ، مع هيكل نظرية تفسيرية ، دار الفكر العربي .
- سيكولوجية ، الشخصية ، دراسة الشخصية وفهمها ، الأنجلو .
- (ومع د . أثناسيوس) مدخل إلى سيكولوجية التعلم ، الأنجلو .

مترجمات (بالاشتراك مع الأستاذ عبده ميخائيل رزق)

— علم نفس الجشطلت ، بول جيوم ، سجل العرب .

— وحدة علم النفس ، دانييل لاجاش ، الأنجلو .

— سيكولوجية الإشاعة ، لأولبورت وبوستمان ، دار المعارف .

— علم الاجتماع عند ماركس الشاب ، لجيرفيتش ، الأنجلو .

— الدعاية السياسية ، لدوميناك ، الأنجلو .

— سيكولوجية المرأة ، لماري بونابارت ، الأنجلو .

— سيكولوجية الشخصية ، لنوتكات ، الأنجلو .

— العمى ، للأب كارول ، مؤسسة فرانكلين .

— نظرية التحليل النفسي في العصاب ، لأوتو فينكل (في ثلاثة مجلدات) الأنجلو .

— مقالات الاشتراكية في دوائر المعارف العلمية (تحت الطبع) .




مكتبة الأنجلو المصرية